حول كتاب :

« معذّبو الحرّاش » في الجزائر ...

بقلم العفيف الأخضر

« نحن حبات البذار
نحن لا ننجو جميعا عندما يأتي الربيع
بعضنا يهلك في هول الصقيع
وتدوس البعض منا الاحذية
ويموت البعض منا في ظلام الاقبيه
غير اننا كلنا لسوف نموت
نحن حبات البذار
نحن نعلم
ان اطلال القبور
ستغطى ذات يوم بالسنابل
وسينسى الناس احزان القرون
وسينسون السلاسل
والمعاصل
والمنافي والسجون
وسنأسو الفرحة الكبرى
جروحا في الصدور
فرحة النصر اذا جاء الربيع
نحن اذ نحيا ، فمن اجل الربيع
واذا متنا ، فمن اجل الربيع »

نجيب سرور

« معذبو الحراش » (١) كتاب هز اعماقي ورسم امامي نقط استفهام بغير نهاية وبعضها بغير جواب .

لقد وجدتني للمرة الاولى في حياتي اشعر ، وانا اقرأ مجموعة الشكاوى التي يحتويها ، بما لم اشعر به في حياتي امام كتاب ولا حتى « الساعة الخامسة والعشرون » .

اني لست اقرأ قصة او فصص ابطال من صنع الخيال الخلاق ، او مآسي توحي مجرد امكانية حدوثها بالفزع والاستنفار لا . ان الابطال او الضحايا – والكلمتان هنا تترادفان – اناس حقيقيون تألموا وما زالوا يتألمون بين فكي كلابة التعذيب في السجون العسكرية بالجزائر . واكثر من مجرد اناس،انهم اصدقاء واخوة ورفاق نعرفهم فكرا واحساسا، لحما ودما ونحتفظ لهم بمئات الذكريات .

وهل يستطيع المرء ان يقرأ تفاصيل تعذيب عزيز او حبيب دون ان يعاني التعذيب كما لو كان هو نفسه موضوعا له !

وتصل المأساة ذروة الذهول عندما يكون المجلودون مناضلين ما زال اكثرهم يحتفظ في اكثر من مكان من جسمه المهدود بوسم الجلاد الفرنسي .

وتصبح المأساة فاجعة بدون اسم عندما يقع هذا في الجزائر التي دفعت ثمنا فلكيا من الالم والشهداء لكي لا يبقى للتعذيب فيها مكان ، حتى لمن كانوا يعذبونها .

ولكن ترى هل يجوز ان اصدق عيني في ان كل ما نقرأ في «معذبو الحراش» قد نفذ فعلا في الجزائر التي حررت بعد استقلالها كل سجين ، واغلقت – كنا نظن الى الابد – كل السجون . وفي يوم مشهود حولت السجن (٢) المركزي متحفا للذكريات ؟

مع كل شكوى ، بل مع كل تفصيل شعرت بالعار . وشعرت بقلبي ينفتت . وشعرت بمأساة العاجز عن قبول الامر الواقع والعاجز عن تغييره . وشعرت بمشاعر اخرى لا استطيع حتى ان اسميها . ومرارة خاصة تأخذ بحلقي .

ويضاعف هذه المواكب من المشاعر الضاغطة الحضور الحسي للضحية والجلاد : كل واحد يتحسس جرحه الحي باصبعيه وكل واحد يحكي قصة تعذيبه بنفسه .

اه ، ان الانسان لا يكاد يفهم شيئا ، رفاق العقيدة والنضال من اجل عالم لا يستغل فيه الاقوى من دونه قوة ولا يعذب فيه انسان انسانا يعذبون اليوم في نفس السجون التي عذبهم فيها عدو الامس . ولكن بايدي اخرى ، جزائرية ، بالاسم على الاقل ..

الاخوة الذين كانوا بالامس القريب ملء السمع والبصر ، يقودون اضخم واروع حملة للتربية الايديولوجية (٣) والتثقيف السياسي للجماهير التي يعلمونها ويتعلمون منها ، وتعرف كتاباتهم بمجرد توقيعها بالحروف الاولى وحتى بدون توقيع ، لان لكل واحد منهم ابداعه الفردي، ولكل واحد منهم رؤياه الواضحة للمشاكل التي تطرحها مسيرة التاريخ في مرحلة بعد اخرى : بن علاق . محمود الاطرش . محمد رباح . بو علام معكوف . هواري موفق . جلبرت طالب ... جميعا حولهم الغدر والانقلاب على النورة الى ارقام صعبة الحفظ ، والى بقايا بشرية على ذمة زنزانات السجون العسكرية الخانقة .

بو زيد بن علاق – اصبح السجين رقم ٥٢٢٤ – هذا الشاب الذي لم يتجاوز ٢٣ عاما بعد ، والذي اختار على مواصلة دراسة الطب دراسة مشاكل شعبه ، وفضل العمل اليومي من اجل صنع مستقبل الجماهير الفقيرة ، على العمل من اجل صنع مستقبله الخاص . وبكل تأكيد لم يكن يشعر بما يتضمنه قراره من بطولة قليلة السوابق .

انه ، بكلمة ، نموذج من هذه النماذج القليلة ، المثلة للانسان الجزائري الجديد ، الذي يناضل على اكثر من واجهة وضد اكثر من عدو : يناضل من اجل اكتشاف اصالته (٤) القومية عبر – ورغم – ركام التزييف والاكاذيب الاستعمارية .

والاصالة التي يناضل من اجل اكتشافها هو تختلف اصلا واساسا عن الاصالة التي تدعيها الرجعية ولا تملكها . لان كلمة الاصالة كأي شعار سليم اخر ، لم يتحول في افواه الرجعيين وافلامهم الى حنين

---

(١) كتاب صادر عن دار النشر – مينوي – وهو يضمن الشكاوى التي قدمها عشرات من المناضلين الجزائريين الى حاكم التحقيق تظلما من التعذيب الذي مورس ضدهم في سجون المباحث العسكرية . وقد قدم له هنري علاق بمقدمة ربما نشرت مع هذا العدد .

(٢) في عيد الاضحى ١٩٦٤ نظمت مسيرة جماهيرية كبرى كان على رأسها بن بيلا بنفسه . وفتح باب السجن المركزي وحرر كل السجناء ومن بينهم مساجين سياسيون . وفي مساء نفس اليوم كان السجناء يعانقون الجماهير . واعلن تحويل السجن الى متحف .

(٣) كانت « الجزائر الجمهورية » تطبع يوميا ٧٠ الف عدد . وكانت افتتاحياتها وفصولها الهامة تترجم أو تنقل في صحف القارات الخمس .

(٤) في اخر لقاء مع بو زيد ، قبل اختطافه باسبوعين تركته منهمكا في اعداد دراسة حول « تكامل الصراع الطبقي والقومي في جزائر الحرب » .

مريض للماضي المقبور والى محاولة لاغتيال كل جديد باسمه .

ويناضل من أجل رد الاعتبار التاريخي لشعبه . ويناضل مع الجماهير ليقف على مكانه الخاص والممتاز في قلب الحياة . كان بو زيد يناضل على صفحات « الجزائر الجمهورية » ١٤ ساعة في اليوم لقاء ٦٠٠ دينار جزائري في الشهر وهذه الاجرة تمثل بالضبط خمس المرتب الذي يناله ضابط المباحث العسكرية الذي يعذبه اليوم .

ومن استنزاف العمل ، الذي كان معايشة يومية طوال العام للعمال في المصانع والمزارع الاشتراكية ، في غرب الجزائر وشرقها ، تحول وجهه المشرق الى زهرة ذاوية . وكان مع ذلك لا يعير اهتماما الى انه يستهلك شبابه ونفسه في سبيل الثورة الاشتراكية المغدورة اليوم .

اليوم فقط عرفت لماذا كنت كلما تلاقينا اتذكر تلقائيا قولة لينين « الثورة تقتل خيرة ابنائها » ولكن لم يخطر حتى على اسوأ ظنوني ان الثورة ستقوده الى خوازيق العذاب .

نعم ، لم أكن اتوقع ان بو زيد ، الذي لا ينطوي قلبه على غير الحب لا لشعبه وحسب بل لكل شعوب الارض ، يعذب الى الحد الذي يضرع فيه لجلاديه ، بعد ثلاث جلسات متواليات من التعذيب ، ابتداء من التغطيس بالماء ، وكم الفم بالصمام ، الى اللدغ بالكهرباء ، وحرق الخصيتين : « اقتلوني ، اتوسل اليكم اقتلوني واريحوني من التعذيب ». وببرودة القلب المسوخ يجيبه الجلاد « الاختصاصي » : « قتلك بسيط. لا . اننا نريد ان نشوي خصيتيك » ثم يتبع الوعيد بالتنفيذ و « الصق من جديد السلك المكهرب على الخصيتين ثم ضمخهما بالماء فشعرت بالنيار ينفذ من كل المسام . اني أجهل طول المدة التي قضيتها في الغيبوبة ».

حقا انه لفاجع ان يمسخ الانسان الى هذا الحد .

الا ان هذا الحقد العاصف ليس فقط علامة مسخ بل ايضا وايضا شاهد افلاس : لان الرجعية عندما تصاب بالسعار ، وعندما ترفع كل ما تملك من عصي في جه اهل التقدم لتشنيهم عن مواصلة المسير ، فذلك يعني انها بلغت سن اليأس ، شفى الهاوية . وعلينا بالضبط ان لا نخافها . وان لا نهرب من شرها بل ان نواجهه . وعلينا ان نراها من وراء البراقع على حقيقتها ، وحقيقة الرجعية العربية : انها عجوز شرسة تحاول بكل وسيلة تستطاع ان تمسك بين اصابعها المرتعشة خيوط قدرها المهدد بالهزيمة ، والتي ، برغم الظواهر الخادعة ، بدأت في كل مكان تتصرم خيطا بعد خيط .

ان ردنا الثوري على هذه الوحشية الرجعية هو ان نحاربها :نحارب الخوف منها ونحارب بالاخص الامل فيها .

وفي اللحظة نفسها التي اكتب فيها هذه السطور من اجل بو زيد العزيز ، الذي نذر نفسه للاشتراكية وحياته للتسيير الذاتي اقرأ — وكأنما شاءت الصدف تجميع عناصر المأساة من اطرافها لتعميق احساسي بفداحة المصاب — في بعض الصحف ان السلطات الجزائرية الحاكمة انتزعت من عمال التسيير الذاتي خمسا وعشرين مزرعة وردتها للخونة الجزائريين الذين حصلوا عليها ، اما ثمنا للخيانة ، من جيش الاحتلال واما باحكام جائرة استصدروها من محاكم الطبقة الاستعمارية ضد الفلاحين الجزائريين ، واما بالاغتصاب السافر . ولمضاعفة المهزلة تضيف نفس الصحف انه — بفضل تدخل خاص — خفضت قائمة المزارع المردودة الى الخونة الاقطاعيين الى ٢٥ فقط . فيا له من « فضل » !

ان الخبر محزن ولكنه لا يحمل على التشاؤم . لان الشعب الذي امتص دمه الاقطاعيون الخونة الذين كانوا اعوام المحنة بقلوبهم واموالهم مع جيش العدو ، لن يسكت طويلا ، ولو تحت ظل السجون والحراب ، على تمطيط قائمة تصفية مكاسب ثورة الجماهير الجزائرية الكادحة . بل ان نذر الانفجار قد لاحت بعد : في مسيرة اول ماي (ايار) العمالية كان اكثر من مائة الف عامل يتظاهرون غاضبين تتقدمهم لافتة طولها ٣٠ مترا مكتوب عليها : « تسقط البيروقراطية الديكتاتورية » وكانوا ينادون بملء حلوقهم : « لا ارض لبوهيبا (١) » وهو احد الاقطاعيين الذين رد اليهم الحكم القائم الاعتبار والارض .

(١) اقطاعي نجهة الاصنام بالغرب الجزائري

اني ، وانا اقرأ هذه الشهادات المريعة ، لا اجد حتى الكلمات القادرة على ترجمة ردود فعلي : هذا احمد بن محمد (٢٠ عاما) يتحدث عن كيفية تعذيبه : « عندما دخلت (الى فيلا التعذيب) استقبلني شخص ضخم ذو شوارب ثخينة فاخذني من كتفي وضرب رأسي بعنف على الحائط ثم امر معاونيه بان ينزلوني الى الكهف وينزعوا كل ثيابي . والتفوا حولي واخذوا يضربونني بالايدي والارجل وبعد ذلك كتفوا مني المعصمين ثم اثقوا الرجلين الى اليدين . ثم عقلوا مني الركبتين وعلقوني على هذا الشكل في عصا : الرأس موضوعا في نقبة بالوعة والدم يقطر من انفي . وضمحوا جسمي بالماء . وصوبوا الانبوب الى وجهي يضخني بالماء الى ان يكتم انفاسي . وكانوا في هذه الاثناء يحرقونني بالكهرباء : فكووا فخذي الايسر ثم الايمن وكذلك اعضائي التناسلية . وهذا دون ان يوقفوا تعذيبي بالماء . واخيرا وضعوا على وجهي كمامة سميكة كانوا يبللونها بالماء باستمرار . ولم يوقفوا جلسة التعذيب الاولى الا بعد ان اغمي علي » .

احمد الذي عمره اليوم عشرون عاما كانت سنه يوم اندلعت ثورة ١ نوفمبر ٥٤ ثمانية أعوام ، ينتمي لجيل الاطفال الذين فتحوا اعينهم على الرعب : الاب يصرع امام عتبة المنزل برصاص الجنود الفرنسيين ، والام يعتدي عليها العساكر تحت السمع والبصر . والاخ القادر على حمل السلاح يختطف بالليل ثم لا يعود . كان هذا الجيل يحلم بكل قواه ، في غمرة الحرب ، بالجزائر الحرة التي لن تشرق فيها الشمس بعد الاستقلال كئيبة ، ولن يسمع فيها صوت معذب او انين سجين .

وها هو اليوم يطعن في حلمه . ويرى في ١٩٦٥ ايام الامس الكئيبة تعود وكأنما شيء لم يتغير غير جنسية المخرجين لمسرحية التعذيب .

ان المعنى العميق لهذه المسرحية هو البصق بملء الفم على كرامة الاحياء وعلى ذكرى مليون ونصف مليون شهيد مات الالوف منهم تحت التعذيب في نفس الفيلا ومراكز التنكيل التي يساق اليها اليوم ايضا اطفال الامس وجنود جيش التحرير القدامى .

من شهادة للاخرى كان قلبي يتفطر لمرأى الجلادين الجدد يمرغون امجد ثورة شعبية في الوحل والعار : « ... وعصبوا عيني وعيني اخي ثم اخذنا شرطيا المباحث العسكرية في السيارة السوداء . اما المباحثي الثالث فقد استبقى نفسه في بيتنا بدون اي مبرر مشروع مع زوجة اخي الحبلى منذ خمسة شهور . »

ولقد سقطت في لحظة ذهول وانا اقرأ هذه الفقرة من شهادة عبد الكريم الشاوي .

لقد كنا نظن ان « البقاء » بدون سبب مشروع مع الام والاخت والزوجة قد اصبح مجرد ذكرى اليمة بعد نهاية حرب السبع سنين ونصف . لا احد كان يتوقع ، ولا انبياء السوء ، ان تعاد مآسي المظليين الفرنسيين من جديد على ايدي مباحث « مجلس الثورة » !

ان هذه الاهانة ، في مفهوم الفرد الجزائري العادي للشرف، اقسى عليه من كل جلسات التعذيب في كل سجون الارض . ولهذا نفهم لماذا يقول المجلود المطعون في شرفه : « ان مثل هذا التعذيب المعنوي فيما اعلم لم يكابده كائن انساني ابدا حتى اثناء ثورة التحرير » .

نعم ، في تقدير الكثير من الاخوان ، تعذيب الامس كان تعذيبا للجسم فقط . لانه منتظر . ولانه « منطقي » في منطق العدو المحارب. اما تعذيب اليوم فمن معيار نفسي ثان . ان فقدانه للتبرير المفهوم جعله اقسى على الجسم والضمير معا . انه في حد ذاته كارثة . وما كان يخطر على خاطر مناضل او عامل او فلاح ان الليل الاستعماري الطويل ما انحسر الا ليعود من جديد بمواكب خزيه : اصفاده ، قهره الطبقي وشركاته الناهبة .

ولكن ما يجري اليوم في تقديري « منطقي » ايضا . لان العدو قد غير مواقعه على الخريطة . وغير اسمه . وغير ، للدعاية ، الشعارات. ولكنه لم يغير طبيعته : الاقطاعي المحظوظ بالأمس تعاد له المحظوظية اليوم . والمناضلون الذين وضعت رؤوسهم في المزاد سنة ٥٨ هم

انفسهم يعذبون اليوم وينفق اموال الشعب الجـزائري على جلاويـز الاستخبارات الامبريالية ليتجسسوا على من نجوا منهم من يد الجلاد الجـديد .

انه ، في التحليل الاخير ، قانون الصراع بين الرجعية ونقيضها. وهو وان كان في البدء صراعا غير متكافىء لانه يدور بين من لا يملكون شيئا غير عطف الشعب وقوة الافكار الجديدة من جهة وبين من يملكـون كتائب من الجلادين وعشرات مراكز التعذيب والاعتقال من الجهة الاخـرى .

انها ملحمة النضال الطبقي منذ كانت في الارض الطبقات ، وربما كنا اليوم نشهد في الجزائر وفيتنام اعنف واخر فصل فيها . وهـل التاريخ من بابه الى محرابه شيء اخر غير انهزام طبقة وانتصار اخرى؟

ان الحالة النفسية لقارىء « معذبو الحراش » تماثل من جهات عديدة حال من يقرأ اساطير اليونانيين : كـل فاجعة تشير وترمز الـى طرف من الاف الاطراف التي تؤلف في مجموعها المأساة الكلية .والمأساة في الادب القديم او في مسرح شكسبير كانت تعكس الواقع الرهيب في تلك العصور : حيث كان الاسرى والعبيد ورقيق الارض يعذبون حتى الموت ، وتدق اعناقهم وتبقر بطونهم بغير جريرة وبغير قصاص .

هذا ما فكرت به وانا اقرأ ـ وكأنما كنت اسمع ـ صوت الصديق العزيز سليم دوكوس ، استاذ الرياضيات المناضل وهو يروي : « ... وفي غرفة عارية نزعوا ثيابي واخذوا يدورونني حول سبابتي اليمنـى المركوزة على نقطة في الارض ، واليد اليسرى مرفوعة الى اعلى الظهر. دوروني حتى الاستنزاف وعندما انهرت انهضوني بلطم الايدي ورفـس الارجل ، واجبروني على مواصلة الدوران حتى الاستنزاف مرة اخرى.. وهكذا طوال ساعة تقريبا . وبعد ذلك ادخلوني الى الغرفة المجاورةحيث مددوني على الظهر عاريا وربطوا ذراعي خلف الظهر ثم كتفوا رجلي بحبل كان يشده المسمى بسطاجي خير الدين حتى لا استطيع ثني الركبتين ثم بللني مفتش ثان بالماء . وكان ظاهرا انه يلتذ بوضعي . وتقدم مفتش اخر ووضع سلكي كهرباء مجرودين مشدودين الى مأخـذ التيـار الكهربائي ٢٢٠ فولتا . وهذه المعاملة دامت وقتا كنت اظن انه بغير نهاية » .

وهو ما فكرت به ايضا وانا اقرأ العامل بن عمار عيشو ـ وهران ـ الذي بعد ان يحكي ببساطة آسرة وجارحة حتى العظم قصة تعذيبه يقول : « وبعد الفراغ (من التعذيب) ذهب مسؤول المباحث العسكرية وتركني بين يدي زبانيته الذين واصلوا لدغي بالشحنات الكهربائيـة لمجرد التلذذ فقط » .

انها لردة على الحضارة واخلاقها وقوانينها وكل التقدم الـذي حققه الانسان بثمن مئات الملايين من الضحايا ، ان يعامل بشر هذه المعاملة المهينة التي تعبر عن اكثر مفاهيم احتقار الانسان وقاحة وسوادا: المجلود يتحول بين يدي الجلاد الى قطعة قماش من لحم ودم فصلـت خصيصا لتسليته .

ان هذا الخفض لانسانية الانسان الى ما تحت الصفر هو الـذي علينا ان نحاربه بكل سلاح وان نستهين دونه بكل خطر .

وانها ايضا لردة على الثورة ان يعامل معارض سياسي باسـوأ مما يعامل به المجرمون المحترفون بل باسوأ ممـا تعامل به البغـال والحشرات . لو عومل قرد بمثل هذه المعاملة لتحركت جمعيات الرفق بالحيوان احتجاجا . فكيف يكون الموقف والامر يتعلق بانسان ؟

ان اذلال الانسان ، اي انسان ، فضلا عن الانسان الجزائريالكادح المناضل الذي لكرامته حرمة خاصة لانه دفع فداءها ثمنا اعلى من ان يقدر ، اذلال لكل الانسانية . وتعذيبه شهر للتعذيب على كل انسان .

واذا كان في كل شهادة مشرط جديد لجرح جديد فان فيها ايضا اشارة رائعة للصمود الروحي للمناضل الذي يصبح امامه كل زبانيـة الارض بكل ما يملكون في ترسانات التنكيل لا يساوون ذبابة : عبدالقادر بن محمد عامل بسيط باجر بسيط في السكة الحديدية . رغـم ان

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

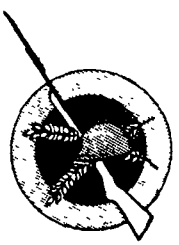

الحرب العالمية الأولى

موسوعة تاريخية مصورة

١٩١٤ - ١٩١٨

منشورات

المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

بيروت

اوسع مجموعة تاريخية مصورة صدرت فـي اللغة العربية .

تقرأ فيها اسباب الحرب واسرار السياسات الدولية ، وابتداء المعارك ، ودخول تركيا فـي الحرب وما تلا هذا من ضائقة شديـدة عمت البلاد العربية حتى كانت الثورة وتمزقت تركيا .. وغادر جنودها ارض العرب .

المعارك الاولى ضـد الروس مصورة ومزودة بالخرائط .

● هجمات الالمان على فرنسا تعطيك صورة عـن الفن العسكري عند الدولتين .

واخيرا تدخل اميركا الحرب فترجح كفـة الحلفاء وتسوء الحالة في المانيا وتطلب الصلح.

كل هذه الموضوعات ومئات غيرها تقدم لك في مجلد واحد مصور ملون تزيد صفحاته عن الف ومائتي صفحة بالحجم الكبير ..

ثمن المجلد ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

معذبو الحراش

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الجلادين علفوه في الهواء من رجليه كالشاة الذبيحة ، وامروا ببطء وببرودة اعصاب التيار الكهربائي على كل مكان في جسمه ، حتى اللسان والعينين ، وكتموا انفاسه بالتناوب ووضعوا فمه طوال ساعات التعذيب في بالوعة القذرات حتى يمنعوه من التاوه والصراخ . وسقط في الغيبوبة تحت سياط التعذيب البقرية المفتولة مرتين متتاليتين . وعندما اخذوه للاستنطاق يقول : « رفضت ان اتحدث » .

انها بكل بساطة العمال الواضحين رفض الخيانة ، وان بثمن الحياة ، ولكنها بالمنطق الموضوعي : البطولة . حوار الصم بين الجلاد والمجلود يبلغ قمة التأزم عندما يرفض المجلود ان يتحدث ، بمعنى انه يرفض مساعدة العدو على تأخير ساعة الصفر بين نهاية عالم الطبقات القديم وشروق فجر عالم الانسجام الجديد ، من وراء ظلام اللحظة الرهيب ومن خلال العرق الصبيب والدم السكيب وصراخ المعذبين .

امام شهادة الاخ محمد رباح الصحفي الشاب لا يستطيع المرء الا ان يشعر، وان للحظة عابرة ، بالعبث ، وبطلان كل معنى لنضال الانسان. اذ يقول له رئيس شعبة العمليات بالمباحث العسكرية : « اذا لم يستطع المظليون الفرنسيون ان يجعلوك تعترف فاني سافعل كل ما في وسعي لانطقك مستعملا كل الوسائل » وقال مشيرا الى المفطس والى السلك الكهربائي : « اتعرف هذا ؟ » .

هذا المدى من المسخ والوقاحة يستغني عن كل تعقيب .

الا انه يجب ان استدرك : ان شعوري العابر بالعبث ، ليس الا راسبا من مفهوم فكري قديم . ان العبث لا مكان له في حياة الانسان الحقيقي المناضل . شرط ان ينظم نضاله من اجل تنظيف العالم من اسباب التعاسة . والجلاد الذي يذكر مناضل جيش التحرير محمد رباح بعار الامس ، ويهدده بتجديده على نحو اقسى لا يختلف نوعية عن جلاد الحرب . ذاك كان منخرطا في خدمة مصالح الطبقة الاستعمارية الناهبة . وهذا منخرط ايضا وربما بنفس الحماس او لنفس البواعث في خدمة الطبقة « الوطنية » الناهبة . اما محمد رباح فهو اليوم كما كان بالامس ابن وفي للفلاحين الجزائريين الذين ما زالوا كما كانوا منذ عقود السنين يشربون مياه الغدران ويثقب امعاءهم خبز الشعير اليابس.

التعذيب اخطبوط يطبق على كل ما تمتد اليه اطرافه دون استثناء لشيخ او لطفل او لامرأة : تقول جلبرت طالب ، ارملة الشهيد ابو علي طالب ، في شكواها لقاضي التحقيق بعد ان قصت عليه تفاصيل تعذيبها: « اقسم بالشرف بان كل ما قلته لكم هو الحقيقة بل هو اقل من الحقيقة».

بالتأكيد اقل من الحقيقة لان نوعية جلاد المباحث العسكرية الذي يستبقي نفسه بدون سبب مشروع مع زوجة وحيدة وحبلى اعتقل زوجها على التو ، لا ضرورة لان يكون للمرء خيال جريء ليحدس بما سيفعلونه بامرأة مكتوفة وعارية بين ايديهم في النصف الاخير من الليل .

تساءلت اكثر من مرة رانا اقرأ « معذبو الحراش » آمنا ، بعيدا عن اخواني المعذبين ومنفيا من وطني : هل لا نملك نحن الذين لم تطبق علينا كماشة الجلاد بعد ، شيئا ما لنجدة النساء والرجال المعذبين ؟ بلى : اننا نملك سلاحا معنويا ضاربا هو الكلمة المناضلة التي تجند عواطف وعزائم ملايين الناس في العالم ، وتعيد للاشياء اسماءها الحقيقية لتقول للجلاد : انت لست الا جلادا . لتباغته وتعريه من كل طاقية اخفاء . وتدعه وحيدا وعاريا امام كل العيون المصوبة اليه كالسهام . ولتقول للمتفرج الصامت : انت ايضا شريك في الجريمة .

لم ارد في هذا الاستعراض الخاطف ان آتي على كل شهادة في الكتاب . وعلى كل ما في الشهادة الواحدة من وقائع ورموز دلالة . وانما اكتفيت بنماذج من هذه وتلك .

بيد أن ما ينبغي ان يركز عليه القارىء العربي المناضل لهذه السطور ، وهي لا تقدم الواقع الاليم الا جزئيا ونسبيا ، هو ان كل واحد من معذبي سجن الحراش حالة cas . حالة مناضل متفان في خدمة الحقيقة والشعب . لم يستطع لا بريق نقود الاغراء ولا ومض كهرباء التعذيب أن ينحرف بمسيرته من دروب الحرية الى دروب الخيانة. انها حالة المناضل الذي يرفض ـ وجها لوجه مع الموت في سرداب التعذيب ـ الكلام ، ويرفض التوقيع على اعترافات مزيفة . ويرفض الركوع للجزمة العسكرية . ويرفض الانهيار الروحي تحت رائحة لحمه الذي يشوى بالكهرباء .

انها حالة نابضة للانسان الحقيقي الذي يستطيع ان يقف ، رغم اثقال القيود ، على قدمين اخريين امام عواصف العذاب ورعود الجلاد.

وانها اخيرا حالة مناضلين انخرطوا في الثورة التي تخدم الطبقة الكادحة ، رغم انهم ولدوا في طبقات مختلفة ولكنهم بالنضال، وشفافية الضمير ، وبطولة الاختيار تجاوزوا حدود طبقاتهم وعبروا خطوط النار ليلتقوا ويناضلوا في صفوف طبقة العمال الفلاحين التي تكافح اليوم سلميا وحربيا في كل مكان من هذا العالم الظالم هنا والمهدد بالظلم هناك.

ان حالاتهم تطرح على الضمير العربي والانساني حالات بل ازمات ضمير :

فهل يتكلم جاك بيرس ، وبيرتراند رسل وجان بول سارتر بكلمات انصعقت لها آذان الجلادين وآمريهم ، ويخترق المثقفون العرب وراء الصمت المريع ؟!

هل تقبلون ان يبقى الضمير الثوري العربي متخلفا عن الضمير الثوري بل حتى الديمقراطي الليبرالي الاوروبي ؟!

هل يقبل مفكر او فنان شريف بعدم اتخاذ موقف من تعذيب مفكرين وفنانين وشعراء في سجون المباحث العسكرية ؟

محمد حربي ، بشير حاج علي ، وحسين زهوان وعشرات اخرون يعيشون في المنفى او يجلدون في السجون ، هم الذين جعلوا من جزائر ما بعد استقلال منبتا واعدا لطلائع فكر نقدي متحرر قادر على ان يهب شيئا جديدا وثمينا لحصيلة الانسانية من الفكر والفن الطلائعي .

فهل يتكلم جاك بيرد ، وبيرتراند رسل وجان بول سارتر بكلمات تحت اقدام الجلاد ، والايدي التي كانت تضيف للفكر والفن نسغا جديدا تنوء تحت اثقال القيود ؟!

آه ، الجزائر التي كانت الى يوم امس خلية نحل لا تهدأ ولا تنام و « عكاظا » فكريا وفنيا منصوبا في معمعان الثورة ، تغيرت اليوم فعدت على النحل المنتج الدبابير العقيمة . ومسخ عكاظ الثورة الى ماخور تتهارش فيه القرائح المكدودة وينكاثر فيه الكلام المطوط، ويتعاطى فيه البغاء الفكري على اوسع نطاق : يروج فيه كتاب متخلفون لمفاهيم صدئة مستوردة اما من العفش الفكري للبورجوازية الاوروبية ، واما من منطق التحريم الديني المترسب من ليل القرون .

تحدثت حتى الان عن الحاضرين بشهاداتهم في هذا الكتاب وهم بالطبع ليسوا كل سجناء الحراش ، ولا كل سجناء السجون الاخرى الاربعة .

اما الغائبون فوضعهم الغامض ، ومصيرهم المجهول ادعى للقلق واكثر تدميرا للضمير .

والغائبون هم اولا اولئك العمال والفلاحون الاميون واشباه الاميين الذين اعتقلوا وعذبوا . وبالطبع لم يستطيعوا كتابة شكاويهم بانفسهم. وليست لهم لا القدرة ولا حتى الحق في انتداب محامين . وحسبهم ان يحولوا تعذيبهم الى غصص في الصدور . وان يروه بعد الحرية على رفاق المعمل وسنابل الحقول ، وفي كل مرة تحتقن عيونهم بالدمع ولا تبكي .

وهم ثانيا سجناء « لامبيز » الشهير الذين لا شك ان تعذيبهم كان اقسى واكثر رعبا (١) .

---

(١) بالطبع لم يكن وقتها قد صدر كتاب « المسؤلف » .

ترى بأي شراسة عذبوا هواري موفق رئيس الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين الذي سلمه بفدر البوليس المغربي مكتوفا لجلاديه في الجزائر ؟

رباه ! كيف عاش محمود الاطرش لحظات الانتظار الرهيبة والعذاب البطيء والخوف والفكر المحموم قبل ان يساق مخفورا بالرشاش الى المقطس ! اني لا اكاد اتخيل ـ لولا اني اعرف نوعيتهم ـ انهم تجرأوا على التنكيل به وهو في التاسعة والستين ، ففي منها ٥١ عاما في النضال والالم والمنافي والسجون : سجنه ثم نفاه الانتداب البريطاني في فلسطين . وسجنه ثم نفاه الانتداب الفرنسي في سوريا . وفي الجزائر « الفرنسية » سجن اكثر من سبع مرات . وها هو اليوم في الجزائر « الجزائرية » يستأنف من جديد الطريق الى السجون. يا للعار! كيف استطاعوا ان يمرغوا محمود ، الذي لم يملك طول عمره غير مطرقة البناء وقلم الكتابة ، في ماء المقطس ! وكيف قادوه دون استحياء من شيبه الى خوازيق العذاب ! وكيف اجترأوا على لدغ قلبه المعطوب باسلاك الكهرباء المشحونة ؟

وكيف تراهم عذبوا سجناء لامبيز : حسين زهوان ، بشير حاج علي ، ومحمد حربي ورفاقهم ، وهم الفصيلة الامامية التي تجسد بدون ادعاء عبقرية الشعب الجزائري ان على مستوى الفكر وان على مستوى النضال . ورغم انهم قادة فكر وقادة نضال ، بل لانهم قادة فكر وقادة نضال ، فهم لا يملكون لا مالا ولا بيوتا فخمة . وبعضهم لا يملك بيتا على الاطلاق ، ولا اي مظهر من مظاهر البذخ الذي يلغ فيه اليوم ، على مشهد من بؤس الجماهير الجزائرية ، جلادوهم والزمر البيروقراطية الآمرة .

كيف عذبوا حسين زهوان الذي انتمى لثورة التحرير منذ فجر ١ نوفمبر ٥٤ ، جنديا شجاعا لم يلق السلاح الا هو اسير جريح عند جيش العدو . زهوان الذي ، في ظل السلطة الثورية برئاسة الاخ احمد بن بيلا ، انتخبه مؤتمر ١٧ افريل ـ نيسان ـ عضوا في المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني. حيث اصبح فيه مدافعا لا تلين له قناة عن وجهة نظر الجماهير وحقها في قيادة السلطة السياسية والمجيء لمسرح التاريخ.

وكيف عذبوا بشير حاج علي الكاتب والشاعر الذي غنى للثورة الجزائرية وعلى ارض المعركة نفسها اروع اناشيد البطولة الثائرة في ديوانه (اغاني ديسمبر) الذي هو نوع جديد من التعبير بالشعر على ولائه الكياني لقضايا الوطن واشواق الانسان في كل الاوطان . نفس بشير الذي قاد الفدائيين الذين دمروا اعصاب العدو ، ومراكزه وعملاءه ، طوال حرب التحرير منذ ٥٤ الى ٦٢ . وقام بهذه المهمة بشرف وبطولة ونجاح وتحت انوف الجلادين الفرنسيين الذين وضعوا رأسه في المزاد . ولكنه بعد استقلال لم يطلب لنضاله ثمنا كما فعل الذين يحكمون اليوم، وانما استمر يعيش للنضال والكلمة: يغني شعرا للثورة الاجتماعية الكبرى في الجزائر الجديدة ، وينور مسيرتها ايديولوجيا في الصحافة الوطنية والمجلات العالمية الى يوم اعتقاله .

اننا نعرف بالسماع انهم عذبوه اياما بلياليها . انهم اخرجوا عليه في السجن مرتين مسرحية اعدامه بعد الادانة المنتظرة . وانه عانى السهد الصامت ليالي بكاملها . وساهر القيد العضوض ، والجروح المفتوحة والمهددة لدمه بالتسمم ، ووقع اقدام الجلاد ، وتهديد المجهول وحصار جدران الزنزانة .

ومن يخبرني كيف كانت قصة تعذيب محمد حربي الذي كان اول ضحية في قائمة ضحايا حملة القمع البيروقراطي المسعور ! محمد الذي تصوب اليه كل سبابات الاتهام الرجعية : تتهمه البورجوازية التقليدية والجديدة بانه « رأس جسر » للافكار الاشتراكية « الهدامة » . وتتهمه الزمر البيروقراطية المرتدة بانه « مخرب » يحرض الجماهير على « اغتصاب » السلطة وتسليم زمامها لايدي الفلاحين المتشققة. وتتهمه شركات المنتفعين بالعروبة والاسلام بانه ينسف تقاليدها وينفث في الصحافة ووثائق الحزب والدولة « سموم » ماركس ولينين .

ولكن من هو محمد حربي الحقيقي ؟ ـ الذي لا نعرف حتى الان الا أنه عذب ثم دفن حيا او شبه حي في سجن لامبيز الخانق ـ رغم أنه لم يتجاوز الثلاثين بعد فان ثقافته المنهجية العلمية العميقة سلحته بقدرة فذة على رؤية مسيرة التاريخ وتعرجاتها وعلى النفاذ للجوهر من وراء ركام الظواهر والقشور . ولقط الطابع التاريخي لفترات النضال المتباينة .

والذي جعل ثقافته فريدة في زخمها وطرازها هي انها لم تكن حصيلة اعتكاف في « صوامع الفكر » بعيدا عن حركة الحياة وتكاليف النضال الثقيلة بل هي حصيلة ارتباط حميم بين الكتاب والحياة : بين « رأس المال » والنضال ضد رأس المال .

شارك مشاركة فعلية في ثورة التحرير ، وفي الثورة الاجتماعية الكبرى التي تترك للتاريخ مهمة تحديد دوره فيها .

كتب الموضوعات الاساسية واعطى الصياغة النهائية لكل من برنامج طرابلس ٦٢ وميثاق الجزائر ٦٤ . وهما يمثلان دليلا نظريا ثمينا للعمل الثوري العربي من اجل تجديد شباب الحضارة العربية ، وتنوير مسيرة الانسان الكادح في نضاله الصعب والرائع نحو الاشتراكية وامتلاك ناصية العالم .

وكتب كتاب « ثورة الفلاحين » وكل البحوث التي اصدرتها مطابع الحزب : « الاستعمار الجديد » « الثورة المعاكسة » « التعاونيات » « مهام المناضل في المصنع والمزرعة » الخ. وكل افتتاحيات « الثورة الافريقية » . والقى عشرات المحاضرات في الجزائر وباريس . وكلها تشكل اضافة خلاقة لرصيد الفكر الثوري في العالم .

وبعد كل كلام ، فمحمد حربي بما يمثله وبما يناضل من اجله نموذج رائد للفكر الثوري الذي لا يركن للجاهز . ولا يقع في شراك المنطق الصوري . والى ذهنه الدائم التوقد والحضور يتميز برهافة الحس الانساني الذي عصمه في كل نضاله سواء في السلطة (مستشار سياسي اول لرئيس الجمهورية) او بعيدا عنها من اهانة الانسان .

والان قد فرغت من الكتاب ومن بعض الخواطر التي اثارها في النفس . صدقوني اذا قلت لكم اني اشعر بالحزن العميق . دون ان اسقط في اليأس :

لان التعذيب في ظل المنطق الراهن لعالم السحق الطبقي والتآمر الرجعي ظهرية ، ربما كانت اساسا غير ضرورية ولكنها لم تتخلف في اي نضال ، يدفعها من لحمه واعصابه الثوري الذي لا يتردد بقبول التضحية حتى عندما تكون في مستوى الحياة .

ولان التعذيب في عالم ومجتمع الطبقات يمكن الثوري من وسيلة ملموسة ، في عالم مملوء بالادعاء والنفاق ، من اثبات دامغ لاصالته الانسانية ووفائه للمبدأ ، وللطبقة ، وللعهد .

ولان الشر ما زال العمود الفقري لمنطق الاشياء . وهذا ليس مهزلة جديدة . وانما المهزلة والمأساة معا هي ان نقبل به او نتصالح معه .

المانيا الاتحادية — **العفيف الاخضر**

والان صدرت رواية

« الطريق الاخر »

خطوة جريئة في اسلوب
الرواية العربية الحديثة

بقلم : سعيد فرحات